الماغوط ومحمد نعيم في "المهرّج"

إذا التقى الكاتب السوري محمد الماغوط والمخرج السوداني محمد نعيم في عمل فلابد أن تنتظر الدهشة ،ولابد أن تتوقع الجمال والإبهار .

ذلك الذي حدث في مسرحية المهرج ؛ تمت سودنة المسرحية، وأبدع فيها أعضاء فرقة الأصدقاء ، ورغم طول المدة الفاصلة بين زمن التأليف و تمثيل المسرحية ،لكنها تحمل في داخلها عناصر التجدد التي جعلتها صالحة لكل زمان ومكان.

التطهير من أهم أهداف العمل المسرحي عموما ؛ ومعناه أن الحالة النفسية وربما السلوكية التي دخل بها المتفرج دار العرض ينبغي أن تتحول وتكون مغايرة للحالة التي صار عليها عند خروجه بعد مشاهدة العرض ؛إذ تتخلص نفسه من الصفات الرذيلة التي نفّرت منها المسرحية.

تتماوج أمام ناظري من يشاهد مسرحية المهرج خطوط كثيرة أبرزها خط السخرية اللاذعة الذي تضج به مشاهد المسرحية ؛ إذ تفوح رائحة السخرية من أفواه الممثلين ومن حوارهم المنساب كنهر النيل .

بنية المسرحية الفنية تشبه رواية "عمر يظهر في القدس" لنجيب الكيلاني التي ابتعثت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليظهر على مسرح الأحداث على أرض فلسطين في القرن العشرين. فقد ابتعثت "المهرج" شخصية صقر قريش "عبدالرحمن الداخل".

ابتعاث صقر قريش مؤسس الدولة الأموية الثانية في الأندلس ، والحديث عن العصر الأموي عصر الفتوحات، أديا إلى تفتق جروح لم تندمل.

تبدأ المسرحية على مقهى يجلس عليه أنماط من البشر ، أهمها في رأيي شخصية معلم اللغة العربية – رغم صغر دوره -فقد كان يتدخل لتصويب أخطاء الآخرين وتلك إشارة رمزية تهيئ المتلقي للصراع القادم .

بدأ المهرج يجسد شخصيات على خشبة مسرح المقهى ، وقام بأداء شخصية "عطيل "البطل العربي الذي استكثر عليه أبناء البندقية أن يكون قائدا عليهم ، واستكثروا عليه حب ديدمونة له، فانتقموا منه ووشوا عليه، وتسرع في الحكم وكانت النهاية الفادحة، فهل نفهم من هنا أن التسرع طابع الشخصية العربية.

الامتياح الثاني الذي يحتوي على أكثر من مغزى هو ابتعاث شخصية صقر قريش ؛ إذ قام المهرج بتجسيد الدور بطريقة هزلية مضحكة مزيفة للحقائق، هنا نفض الهيكل العظمي لصقر قريش الحقيقي التراب من عليه ثم أصبح المزيف في مواجهة الحقيقي بعد أن اكتست العظام لحما .

بدأت المواجهة وإن شئت المحاكمة بين الصقرين ؛ فقد كان مشهد المواجهة بين الصقرين من أخصب مشاهد المسرحية على الإطلاق ، مواجهة خالطتها بعض الدهشة من صقر قريش الحقيقي ،حين علم بالتغيير الذي حدث في نمط الحروب والأسلحة وحتى وسائل التعذيب حيث لم يصمد أقوى فرسانه عند تعرضه للتعذيب.

يتحدثون عن فلسطين – واليوم العالم العربي في كثير من جوانبه صار مثل فلسطين وأشد – ويتفتق الجرح العربي وتتسع دائرته وينبثق صوت فيروز وهي تشدو "الغضب الساطع آت"

يفاجَأ صقر قريش بالحدود بين الدول التي لم تكن موجودة في عصره ؛إذ حالت دون رغبته المُلحّة في السفر لتحرير الأراضي المسلمة المغتصبة ؛ لم يستطع ؛ لأنه لا يملك جوازا للسفر ، ولا يعي ما معنى جواز. مُنع من السفر في حين سُخّرت كل الإمكانات لعبور راقصة . هل نفهم من ذلك أن العرب يقدمون الرموز الفنية أو قل الخليعة على الرموز التاريخية؟!

لم تذكر المسرحية اسما لأي شخصية عدا "ديجانقو" صاحب المقهى، وهذا له دلالته؛ إذ يضفي على المسرحية طابع العمومية والاستمرارية؛ حتى لا تتقوقع في مكان محدد وإطار إقليمي ضيق.

بعد التحقيقات والاتهامات التي كالوها لصقر قريش تبيّن لهم حقيقته ، احتفلوا به ، فكيف كان الاحتفاء به؟!

أحضروا المغنين والراقصات والشعراء وأقاموا حفلا خطابيا غنائيا راقصا ترحيبا بقدوم جدهم أو ابتعاثه أو اكتشافه. وأخيرا قرروا أن يضعوه في قفص ليأتي السياح يتفرجون عليه بمقابل مادي .

ثم باعوه لأحد السياح ، وكان إسبانيًّا ، وفي ذلك مغزى لأن الرجل الذي أقام دولة مسلمة على أرضهم اشتروه اليوم!!! وعاد فاتح الفردوس المفقود لأيدي الذين أخذوا الفردوس المفقود من أحفاده. وكانت قيمة الصفقة ثلاثين ألف طن من البصل !!!

رغم التراجيديا الطاغية على النص ، فالعرض لم يغفل الجانب الكوميدي المضحك الذي جاء متدثرا بالرداء التراجيدي حيث الضحك كان أسود اللون، والأسنان حينما تفتر ضاحكة فإنها تشق طريقها بصعوبة بين الدموع المنهمرة وتكاد الشفاه تغرق في سيل الدموع.

المسرحية ملأى بالمفارقات التصويرية في معظم مشاهدها ، خاصة مشهد المواجهة بين الصقر الحقيقي والمزيف ، ومشهد محاولة صقر قريش عبور الحدود .

استخدمت المسرحية أسلوبا سينمائيا وهو "الفلاش باك" بمعنى رجوع الأحداث إلى الماضي وعودتها مرة أخرى إلى الحاضر حاملة معها طاقة كامنة لتغير مجرى الأحداث، إذ بدأت المسرحية في المقهى ثم عادت للعصر الأموي ثم عادت مرة أخرى للمقهى.

كثرت الرمزية في حوار الممثلين ، فكل الكلمات والمواقف كانت لها دلالاتها وإيحاءاتها. كما نصبت المسرحية محكمة، لكن الحكم لم يصدر بعد .

تجدر الإشادة بفرقة الأصدقاء بجميع أعضائها وعرّابها محمد نعيم وبالطاقم في الإخراج والديكور المذهل رغم بساطته ؛ إذ كان قادرا على التعبير عن المشاهد.